الاستعمار والحضارة

بقلم الكاتب الانكليزي ليونارد ولف

تلخيص وتعليق : لمعاوية نور

ينتمي ليونارد ولف الى رهط كريم من كبار مفكري الانكليز الاحرار في العصر الحاضر ، ذلك الرهط الذي ينتظم فيه ولز وشو وبرتران رسل وهارولد لاسكي وسدني ويب واندادهم من « الانتلجنسيا » ذات التفكير الحر . وانهُ لمن الدلائل الطيبة التي تذكر لهذا العصر ان بعض علمائه وفلاسفته ورجال الفنون فيه قد اهتموا بمسائله الاجتماعية وجعلوا لها نصيباً كبيراً من تفكيرهم وعنايتهم . فنرى ولز القصصي الاديب في عهدهِ الاخير لا يكتب حرفاً واحداً الاّ وهدفه الاصلاح الاجتماعي ، ونرى برتران رسل يهمه امر الثورة في الصين ويكتب في الشؤون الهندية مثل اهتمامه بالفلسفة الرياضية وسبات التفكير المجرد ، ونلتفت الى صديقنا العالم البيولوجي الفذ جوليان هكسلي يشتغل بالشؤون الافريقية ويجد لها مكاناً رحيباً الى جانب الحديث عن التطور وخصائص الاحياء والوراثة وما اليها من الشؤون العلمية . فهذا عصر علمائه ادباء ، وأدباؤه علماء وفلاسفته يشتغلون بالصحافة ، وصحافيه لا يفوتها الاشتغال بالعلم والرياضة ودراسة الفلك . ولعلّ هذه النزعة الانسانية الجديدة « New Humanism » هي من ارق ما تمخضت عنه الحضارة الغربية في طورها الاخير . هذه النزعة التي ترى العلم والفلسفة والسياسة والادب والصحافة وحدة انسانية من اسمى اغراضها خدمة النوع الانساني « Homo sapiens » والعناية بروح الانسان وجسمه . واذا كان للانسانية أن تعلو والحالة الراهنة ان تبقى فهي بلا شك مدينة لهذا الروح الجميل ، الذي يذكيه في اميركا بابت « وهكسفورد » وفي انكلترا « هكسلي » و« ولز » وفي فرنسا « رومان رولان » وفي الشرق امثال « طاغور » . فهؤلاء الكتّاب يعنيهم شأن الانسان اكثر مما تعنيهم شؤون اوطانهم الضيقة ، ويعنيهم مستقبل الحضارات الانسانية اكثر مما تعنيهم سيادة اوربا او اميركا ، ويهمهم ان تكون علاقات الشعوب بعضها مع بعض طيبة الاواصر ، خيرة الانتاج في احترام متبادل وعطف سام . فهم يخافون ويتوجسون شرّاً من بواعث المنافسة الرخيصة ، والعداء الجنسي والبغض ، وعوامل الظلم والجشع ، والاستغلال المادي القصير النظر ، وطغيان السياسات العمياء التي دفعت بالعالم

الى الحرب الكبرى وهي على وشك أن تردیه في حرب مثلها أو أهول وأخطر نتائج . فهؤلاء الكتّاب يكتبون الكتب، ويلقون المحاضرات، وينشرون المقالات في الصحف في هذا المعنى. وليس الآن مجال الحديث عن النزعة الانسانية الجديدة بالشرح والافاضة ، وانما نحن هنا بسبيل الحديث عن كتاب واحد كتبه مؤلفه حديثاً عن الاستعمار والحضارة ، عرض فيه لمشكلة الاستعمار الاوربي الحديث في قارتي افريقيا وأسيا ، وعلاقة ذلك الاستعمار بالحضارة الاوربية الراهنة وعلاقة تلك الحضارة في زيها الصناعي المادي بسكان افريقيا وأسيا ، وتناول أسباب ذلك الاستعمار الحديث ومصاحباته ، وأخيراً بحث في ما نتج عنهُ وما أتى به من مساوىء ومشكلات، وما سوف يخلفه من متاعب وصعاب وما سيقود اليه العالم من خراب محقق ان هو استمرَّ على خططه وأساليبه المعهودة . وقد اخترت هذا الكتاب بعينه للتحدث عنه لقراء العربية لعلاقته الوثيقة بأهم ما يشغل بالهم من المشكلات والحركات القومية ولكي يروا كيف يعالج هذه المسائل ذهن عالمي صافي التفكير ، ناصع الاسلوب مستقل الرأي غير متحيز لأمة أو ثقافة أو حضارة ، وانما همه الاكبر جلاء الحقيقة وعبادة الحق كما يبدو له

يقول الكاتب ان الحضارة الاوربية الحديثة هي شيء مختلف كلَّ الاختلاف عن كل الحضارات التي سبقت القرن التاسع عشر ، بعد أن تحطمت الحضارات التي كانت ترتكز اشد ما ترتكز على الملوكية والارستقراطية من جراء الغباء الذي صحبها ومن جراء الثورة الفرنسية ثم الثورة الصناعية التي قامت عليها الحضارة الراهنة حضارة الديمقراطية الحديثة والنظم البرلمانية ، والمعمل والآلة والقاطرة والطيارة والنور الكهربائي . فتضخمت الصناعة في اوربا ، واشتدَّ التنافس بين دولها لما ضاقت بهم سبل التوزيع والنجاح المادي . فاضطرت تلك الحضارة ان تبحث عن اسواق جديدة لصناعاتها وجلب المواد اللازمة للانتاج والعمل . ومن هنا شعرت اوربا بحاجتها الى سائر العالم اذا كان لها أن تنجح في نظمها الجديدة ، فتنافست الدول الاوربية في الاستئثار بالاقطار الاسيوية والافريقية لتجعلها ملاحق لتجارتها وصناعاتها . وساعدها على ذلك سرعة المواصلات التي سهلت امر اختراق البلدان النائية وربط العالم كله بعضه ببعض . وهذا من اهم الاسباب التي اسبغت على الحضارة الراهنة اهم خصائصها . فقد كانت صعوبة المواصلات في الماضي تحول دون أي حضارة مهما كانت قوية ممتازة ان تجتاح بقية الحضارات او تجبرها على الاخذ بها فكانت العزلة تامة بين اسيا وأفريقيا من حيث اساليب العيش وسبل الحياة والتطور الذي وقع في اوربا بين عامي ١٧٥٠ و١٨٥٠ وهذا تطور عظيم هائل لم تشهد مثله البشرية في كل تاريخها المعروف . ولعله اعظم قفزة قفزها الانسان

ولما كانت الحضارة الراهنة حضارة صناعية في صميمها ، كذلك كان الاستعمار الحديث اقتصاديًّا صناعيًّا في دوافعه وموجباته ، ولم تستطع اسيا او افريقيا ردَّ الهُ لانهُ اتاها فجأة بقوة ووسائل ليست في طاقتها ولا هي تدخل في دائرة معرفتها واختبارها . فهي في الواقع حضارة استعمارية غازية

بمعداتها الحربية الجديدة وطرق مواصلاتها السريعة . وقد كانت الوسائل الاول في ذلك الاستعمار عن طريق التجار واصحاب رؤوس المال والشركات المختلفة يعزز من مركز مقامها دولٌ حربية قوية، ويقول المؤلف ان حادث الاستعمار هذا لعله اعظم حادث عرف في التاريخ من حيث السرعة والشمول . ففي خلال مائة عام اي من ١٨١٤ — ١٩١٤ استطاعت اوربا ان تخضع القارة الاسيوية والافريقية وجنوب امريكا لسلطانها الذي لا ينازع

***

وقد كان الاعتقاد السائد في اوربا ان هذا الاستعمار هو الشيء الطبيعي وانهُ في صالح الشعوب الاجنبية اكثر منهُ في صالح اوربا الى ان وقفت اليابان امام الطليان في عام ١٨٩٦ فدافعت عن ارضها دفاع الابطال وهزمت الطليان شر هزيمة ثم تلا ذلك حادث تغلب اليابان على روسيا عام ١٩٠٥ ومن هنا ابتدأ التشكك في قيمة الحضارة الاوربية عند بعض الاوربيين . فان انتصار اليابان على روسيا يعد نقطة تطور كبير في تاريخ الاستعمار الحديث ، اذ فهمت اوربا لاول مرة ان فتحها وغزوها للعالم باجمعه قد تلاهُ رد فعل قوي من العالم باجمعه ، ثم جاء نجاح اليابان وارتفاعها الى مستوى الدول الاوربية الكبرى حافزاً ألهب حماسة العالم الاسيوي والافريقي ودفع بهِ الى التنفس من امر هذه الحضارة الجاحدة حقوقه التي فرضت عليه فرضاً واستعرت عوامل البغض والكراهية ضد الحضارة الاوربية وسبلها المختلفة . ويمكن ان يقال انهُ الى مستهل القرن العشرين لم تقُم حركة قوية تناهض الاستعمار الاوربي . غير اننا نرى الآن ان معظم البلدان الاسيوية قد تحررت او كادت تتحرر من السلطان الاجنبي ، فتركيا والصين والعجم هي الآن في ثورة ناجحة ضد الاستقلال الاجنبي ، وفي الهند اضطراب قوي رغم كل الاصلاحات الدستورية والحركة الهندية الآن لا ترضى بأقل من الاستقلال التام

وقد رفض الوفد في مصر بأباء منحة استقلال زائف وما زال يطالب باستقلال البلاد استقلالاً تامًّا ، وفي فلسطين حركة عربية واسعة النطاق . وفرنسا تجد المصاعب الدائمة في تونس ، وسوريا تلتهب حماسة وثورة ضدها . وقصة عبد الكريم وقيامه ضد فرنسا واسبانيا في الريف ما زالت ماثلة للاذهان . وفي افريقيا نشأ شعور قوي ضد الاستقلال الاجنبي والسلطات الاوربية . والمؤلف يعتقد ان سبب كل ذلك هو تصادم الثقافات ، وعندهُ ان مشكلة الاستعمار الحديث انما هي مشكلة نزاع عنيف بين حضارة صناعية آلية لا بدَّ لها من الاستعمار في نجاحها وبين حضارات لا تريد الفناء فيها والشيء الجديد في هذا النزاع ان العالم لم يشهد نزاعاً في الحضارة بلغ من الشدة والطغيان مثل ما هو عليهِ الآن . وذلك لان من خصائص الحضارة الاوربية الراهنة انها تطغى على كل النظم والمؤسسات الاجتماعية في الحضارات الاخرى ولا تعرف التساهل او المهادنة في فرض امرها واتباع سبلها ، وهي تقوم على القوة الحربية في اساليبها والتنافس الاقتصادي العنيف في نسيجها

ويعتقد ليوناردولف ان الذين يقولون بأن النزاع الحالي بين اوربا وبقية العالم انما هو نزاع جنسي او ديني او وطني انما هم على خطأ واضح ، ذلك لان العوامل الجنسية والدينية والوطنية غالباً ما تظهر على انها عوامل هامة في هذا النزاع لظهورها ، والحقيقة ان ليس الجنس ولا الدين او الوطنية العامل الاول ولا العامل المهم في هذه الظاهرة . انما يقول طغيان الحضارة الاوربية واساليبها في الاستعمار والاستغلال هو الذي اذكى نار الثورة في الصين والقلاقل في الهند ومصر والتجديد في الدولة التركية وبغض العالم الاسلامي لدول اوربا جميعاً . والذين يخيل اليهم انهم يستطيعون تفسير تاريخ الشعوب والحروب والحركات الانقلابية وتفوّق بعض الشعوب على البعض الآخر بلون الجلد والبشرة يستحقون الاستخفاف والريبة . فاليابان بعد ان اصبحت دولة مستقلة لا تراها تستقر بمثل هذا العداء للرجل الابيض الذي يشعر بمثله الرجل الصيني . اليابانيون يكرهون الامريكيين لان بينهم خصومة استعمارية دائرة على توازن القوى الحربية في المحيط الباسفيكي . والنزاع الجنسي ما هو الاّ ظاهرة سطحية يوجدها الشعور بالغنى والسيطرة الاقتصادية وليست هي في نفسها بذات قيمة . وكل من يدقق النظر في الحوادث التي تقع الآن في الشرق الاقصى يرى ان السبب الجوهري فيها نزاع بين الحضارات

فالحضارة الاوربية الزاهية في مظهرها الاستعماري الحربي الاقتصادي قد هددت حياة تلك الشعوب ورخاءها وسبل عيشها وعلاقاتها الاجتماعية بالزوال . وليس عجيباً ان تدافع تلك الحضارات الهادئة التي لا تعتبر المادة ولا ترى رأينا في المنافسة الصناعية وقوة المال ضد المعتدين عليها . ومهما اتخذت تلك الثورة من ألوان الوطنية او زي الجنس والدين فان مصدرها بلا جدال هو اختلاف يسير في اسلوب الحياة ارادت الحضارة الزاهية القضاء عليه

***

يجب ان لا يغرب عن البال ان كيان الحضارة الاوربية الزاهية يقوم على التنافس الاقتصادي الصناعي ، والتنافس الاقتصادي لا يعرف سوى مبدإ الربح المادي للفرد سواء في اوربا او في أسيا وافريقيا . غير ان مثل ذلك الاستغلال غير ممكن في اوربا لقرب مستوى شعوبها في الوسائل والطرق بعضها من بعض . وأوروبا لا تحس بوطأة مساوىء حضارتها لانها متجانسة قريبة بعضها من بعض . ولكن أسيا او افريقيا تحسّان بها احساساً يهدد حياتهما ويكاد يفنيها . والحضارة الزاهية التي انجبت الاستعمار في أسيا وافريقيا وخلقت مصاحباته ومشكلاته هي بعينها التي خلقت مشكلات الحروب البشرية والاقتصادية بين الدول الاوربية نفسها

فمساوىء الحضارة الاوربية قد ابتدأت اوروبا نفسها تحسّها في هذا مع ان سكان اوروبا لم يشهدوا جرائمها المبتذلة مثل ما شهد سكان أسيا وافريقيا . وهذا الفرق في الحضارة الصناعية الآلية قد يقود في اوروبا الى نزاع عنيف بين انجلترا وفرنسا مثلاً اذا كانت الاولى قوية جداً في وسائل

الصناعة ومعدات الحرب وكانت الاخرى لا حول لها ولا سلطان من كل ذلك . فالمشكلة اذاً ليست مشكلة جنسية ولا دينية ولا قومية . وانما هي مشكلة من صميم الحضارة الراهنة وسببها ووسائلها. وفكرة الوطنية نفسها هي من نتاج الحضارة الاوربية الحديثة فهي غير معروفة في آسيا وافريقيا بمعناها الحديث . فاذا كانت الشعوب الاسيوية والافريقية تستعملها فانما كان ذلك كذلك لانها تستعمل وسائل هذه الحضارة وسبلها للتحرر منها. كما وقع في اليابان وتركيا مثلاً

***

وقد عقد الكاتب فصلاً عن تصادم الثقافات فيما قبل القرن التاسع عشر وتكلم عن الحضارة الرومانية والاستعمار الروماني فابان الفرق الشاسع بين الاستعمار الروماني والاستعمار الحديث . ففي ذلك الاستعمار لم ترغم روما بقية العالم على أخذ حضارتها والعمل بمقتضاها،وانما كانت تترك لهم كامل الحرية في معظم طرق معيشتهم وحياتهم ذلك لان حاجة الرومان الى الفتح لم تكن اقتصادية صناعية وانما كان دافعها الاول هو حب الفتح ومطامع الملوك في السلطان والتوسع الحربي وليس معنى ذلك ان الحضارة الرومانية لم تمتزج بالحضارات الاخرى او تؤثر فيها ، وانما كان يأتي ذلك تدريجيًّا وفي رفق وهوادة ، حتى ان الرومان أخذوا من الحضارة الاغريقية الشيء الكثير ، مع انهم كانوا الغزاة القاهرين

والحضارة الاغريقية ايضاً مثل آخر لسموقه ، فقد بلغت تلك الحضارة في اوج مجدها مستوًى رفيعاً في الاجتماع والنظم السياسية والاقتصادية والفنون ، وفتحت معظم شعوب العالم ، فكان لها فارس في الشرق، ومصر في الجنوب والشعوب اللاتينية وفيليقيا في الغرب ، واتصلت بحضارات تلك البلدان وأثرت فيها غير أنهُ لم يقم نزاع عنيف بينها وبينهم ، ولم تتلاشَ أية حضارة في تلك الحضارات من جراء ذلك الاختلاط ، ذلك لان الاغريق لم يحاولوا توحيد امبراطوريتهم الواسعة المختلفة الاشكال والثقافات ، في شؤون السياسة الاقتصادية أو النظم الاجتماعية الاخرى . فقد كانت الحضارة الاغريقية متساهلة كثيرة التساهل مع الشعوب الاجنبية التي دانت لها. وكذلك كان استعمار عصر الإحياء اوالنهضة « الرينسانس » كل غايته التبادل التجاري في المحصولات وفتح الاسواق الاجنبية ، وأخذ المواد الخام ، وقد كانت تلك العلاقة الاقتصادية سلمية لم يعقبها أي فتح حربي ، فلم يقم نزاع بين الحضارات ، لان اوربا لم تكن في معداتها الحربية بأعظم شأناً من الهند أو الصين كثيراً

***

اما قصة الاستعمار الحديث في اسيا فهي معروفة مشهورة ، ابتدأت في اول الامر بالمعاهدات التجارية بين الدول الاوربية والامراء الآسيويين كما حصل في الهند

ويتضح تصادم الثقافات جليًّا ناصعاً في الحركة الهندية الاخيرة التي ابتدأت تشتد بعد اوائل

القرن العشرين ، فهي في الواقع ثورة واسعة ضد الحضارة الاوربية ونظمها الاستعمارية فغاندي ينفخ في امته تعاليم الهندية لاكتشاف الروح الهندي القديم والرجوع الى الحضارة الهندية واصلاحها والسمو بها الى اوج الحضارات الرفيعة . وقد استعمل الشاب الهندي المتعلم في نزاعه هذا كل أساليب الحضارة الاوربية في محاربتها والتخلص منها . ومن الغريب حقًّا ان تحمل الحضارة الاوربية نفسها بذور حتفها وهلاكها

وقد ابتدأت الحركة التركية بالدعوة الدينية ، الاسلامية ، ثم قامت بحركة التجديد الغربية لكي تتحرر من العبء الاقتصادي والسياسي الذي لحقها من الحضارة الغربية . يقول المؤلف «ومن نتائج هذا النزاع ان أسيا اصبحت الآن تعبد فكرة الوطنية السياسية ، وهي فكرة غربية بلا جدال وقد دفعت هذه الفكرة باوروبا الى الحرب الماضية ، فاذا لم تعمل اوربا كل ما في وسعها لمساعدة هذه الشعوب الاسيوية للتخلص من طور الاستعمار الى الاستقلال التام من غير عنف ولا نزاع فان العالم سيشهد موجة وطنية كبرى تتلوها كارثة عظمى ، تصبح بجانبها كارثة الحرب الكبرى شيئًا تافهًا قليل الأثر »

***

اما استعمار افريقيا فقد ابتدأ عام ١٨٨٠ وكانت الدوافع اقتصادية من غير شك ، وكان الرحالة الاوربي او الوكيل التجاري لشركة من الشركات يذهب الى اواسط افريقيا ومعهُ الوان من الهدايا والمنح يقدمها للامير الافريقي ثم يطلب منهُ امضاء معاهدة لا يفهم لغتها ، مع الشركات التجارية ، ويفهمهُ ان هذه المعاهدة ستدرُّ على شخصه وبلاده الرخاء والثروة ، وقد تمَّ استعمار معظم بلدان افريقيا الوسطى على هذه الطريقة الخادعة ، فستانلي حينما قام بالنيابة عن ملك البلجيك بامضاء مثل تلك المعاهدة اصبحت الكونجو مستعمرة بلجيكية وبهذه الطريقة استولت انكلترا وفرنسا على مستعمراتها في أواسط افريقيا وحينما نشب النزاع بين الدول الاوربية على تحديد اراضي مستعمراتها اتفقوا فيما بينهم على ان كل من امضى معاهدة مع امير من امراء افريقيا على جزء من الشاطىء الافريقي ، فمن حقه الارض الموازية لذلك الشاطىء في داخل القارة الافريقية ، وهنا يقول المؤلف :

« ان الطريقة التي اتبعت في الاستيلاء على تلك الاراضي الافريقية كانت في معظم الحالات وحشية موغلة في الوحشية ، وان تلك الطرق المبتذلة ، قد تركت من غير شك أثرها السيء في العلاقة الراهنة بين سكان أفريقيا وأوربا ، فان تلك السبل الدنيئة ان دلت على شيء ، فهي تدل على ان الحضارة الاوربية تعامل الرجل الافريقي مثل معاملتها لاي حيوان آخر ، ذلك لان الرجل الاوربي يعتقد انهُ لهُ الحق في الاستيلاء على ارض الافريقي بالقوة او بالخداع »